جاليليو جاليلي

العلم يُعتقل

في أول أكتوبر سنة ١٦٣٢ استدعى ديوان التفتيش جاليليو جاليلي من مدينه بيزا الى الفاتيكان في رومه. وقبل أن يصل الى القصر البابوي حُجِز ولكنه عومل بلطف. وبعد بضعة أيام دعي الى ديوان التفتيش أمام محكمة مؤلفة من سبعة كرادلة. وكانوا يستجوبونه بتدقيق كلي.

سأله رئيس المحكمة: أما وعدت قداسة سيدنا البابا أن تُقلع بتاتاً عن الدعاية لفلسفتك الباطلة وتلتزم مباحثك العلمية.

فأجاب جاليليو — بلى: وعدت قداسته ألاّ أتعرض للاهوت ولا لتفسير الكتاب المقدس. ولكني لم أعد قداسته اني لا أبث في الشعب معلوماتي العامة.

— وإذا كانت المعلومات التي تبثها في الشعب تناقض اللاهوت ونصوص الكتاب المقدس أفلا تكون قد نكثت بعهدك لقداسته؟

— مثل ماذا؟ ألم تقل ان الشمس ثابتة، والأرض تدور من حولها؟ أليس كتابك الذي نشرته في العالم المسيحي تصريحاً واضحاً بهذا المعنى؟ وقد انتشر الكفريين المسيحيين بناء على كتابك.

— أقر الي في كتابي مبنية على أدلة وبراهين عقلية، واختبارات حسية، وهي معروضة لكل من يستطيع أن يفندها.

— نحن نفندها بكلمة واحدة. ألم يرد في التوراة أن يشوع بن نون أوقف الشمس نصف ساعة الى ان تنتهي المعركة على نور؟ ولم يقل انه أوقف الأرض عن الدوران حول الشمس.

— هذا قول التوراة. ولكن التوراة كتبت في زمن لم يكن فيه علم. لو كان علم اليوم موجوداً في زمن يشوع لقال كاتب السفر «عطل الله بشفاعة إشوع دوران الأرض حول الشمس نصف ساعة الى أن انتهت المعركة». فالذي كتب السفر كتبه حسب عقلية أهل ذلك الزمان، فلو قال لهم انه أوقف الأرض ما صدقوه، ولقالوا انه مخرّف. ألا يرى بعينيه أن الشمس سائرة في قبة الفلك والأرض ثابتة في مركزها؟ أم هو أعمى؟» فذكي يتنادى

هذا الاعتراض قال انه أوقف الشمس، حتى يصدقوه .

— ونحن نقول لك : هل أنت أعمى لا ترى الشمس سائرة والأرض ثابتة ؟

— كلا لست أعمى . ولكن ألا تفهمون أنتم ما تقرأون ؟ لماذا لا تقرأون براهيني في كتابي الذي وفّقت به بين قول الكتاب وقولي وتتفهّمونها جيداً ؟ فقد فسرت نظريتي تفسيراً علمياً لا غبار عليه .

أتريد أن نصدق وحي علمك: ونكذب وحي الله في كتابه المقدس ؟

— معاذ الله : اني استغرب أن اليهود الذين هم أصحاب التوراة لم يعترضوا عليّ ولا دافعوا عن توراتهم . وأنتم ....

فقاطعه المستجوب غاضباً : انتظر أن يدافع اليهود عن التوراة وفيها نبوءات الأنبياء عن يسوع الناصري المسيح . فاذا تمسكوا بها فلا يستطيعون أن ينكروا مجيء المسيح . أما نحن فلسنا ندافع عن التوراة لأنها لا تحتاج الى من يدافع عنها وهي وحيٌ من الله . والله صادق فيما أوحى وأعلن . والله يرينا الشمس متنقلة في السماء بين الابراج فضلاً عن إنها دائرة حول الأرض .

— هكذا تتراءى لكم لانكم على الأرض . فلو كنتم في المريخ مثلاً لرأيتم الأرض تنتقل بين أبراجها حول الشمس ولا ترونها ثابتة كما تقولون . والمسألة تتوقف على مكان الرصد لا على جرم المرصود فقط .

هذا ما تزعمه أنت بحسب علمك الظاهري وسفسطتك الفاسدة . وأما نحن فدستورنا هو هذا الكتاب المقدس الذي أوحى به الله . وديوانا يقضي عليك أن تكتب منشوراً تنكر فيه عقيدتك وتجحد جميع أقوالك وتتعهد انك تلزم الصواب في كل ما تقول :

— اني ملتزم الصواب . والصواب هو ما أقول وأكتب لأنه مبني على مشاهدات محسوسة وبراهين معقولة .

— يعني أنك تستمر على غيك، وتصر على كفرك، فإذاً أعلم أن التعذيب حتى الموت هو عقابك . فاختر لنفسك ما يحلو .

— فلماذا تخيروني ؟

— تجحد جميع مزاعمك الباطلة .

ففكر وقال : لا أستطيع أن أجحد نفسي وأنا أعلم إني على صواب . والله نفسه تعالى الذي خلق هذه الخليقة على هذا الشكل وجعل الشمس ثابتة والأرض تدور من حولها يؤيد كتابي .

— تبًّا لك من وقح مكابر أتظن أن الله يؤيد قولك ويجحد كتابه المقدس .

— ليس الكتاب المقدس كتاب الله ، بل هو كتاب اليهود ، وهم دوّنوا فيه ما شاءت لهم أهواؤهم . هل نصدق قول التوراة ان الله خصهم بأرض كنعان التي سمّوها أرض الميعاد . ونحن نعلم أن الله لجميع ولم يخص قطراً بأمة من الأمم . وإلاّ فليخرج غير اليهود منها لأنها ليست لهم وليعد اليها اليهود الذين لم يقيموا فيها سوى بضع مئين من السنين ، وقد هجروها أخيراً إلاّ نفر قليل منهم .

— إذاً لا تعتقد أن التوراة كتاب الله .

— لا

— أولا تعتقد أنها وحيٌ منه تعالى ؟

— أعتقد . وأنا أعتقد أن اليهود دسّوا فيها أموراً كثيرة لمصلحتهم . ومنها حكاية يشوع عن إيقاف الشمس .

— ليس لنا أن نجادلك في موضوع حكاية يشوع . ونحن نرى أنك مصرٌّ على دقيدتك إن الأرض تدور لا الشمس

— نعم

— إذاً . الحكم يصدر من ديواننا بالتعذيب لك، ولسوف تقدمه لقداسة البابا لكي يصادق عليه . وسينفذ إذا لم ترجع بقولك إن الشمس ثابتة وإن الأرض تدور من حولها

ثم أخرجوه مخفوراً وهو يخبط الأرض برجله قائلاً ، بل تدور . وتدور . وتدور .

فهي غضب الكرادلة وأسرعوا بعرض مضبطة الجلسة على قداسة البابا تو٨ .

وبقي جاليليو تحت الحراسة برهة وكان أصدقاؤه ، ومنهم الدوق توسكانا الذي كان صديقه الحميم، يتشفعون به . ولكن ديوان التفتيش لم يقبل شفاعة أحد حتى ولا شفاعة البابا أوربان الذي كان يود جاليليو . بل أوغروا صدر هذا البابا عليه . وكان قد ارتقى الى عرش البابوية منذ ذلك الحين فتركه البابا بين أيديهم كما فعل بيلاطوس حين ترك المسيح بين أيدي اليهود.

وكان حكم الديوان عليه أن ألبسه المسوح وأركعه أمام حشد من الناس وأمره أن يصرح أمامهم ما لقنه إياه وهو :

« أنا جاليليو جاليلي أسجد لدى نيافتكم وأعاهدكم على الكتاب المقدس أني أرفض هرطقة دوران الأرض وأسفها » ثم سجنوه عند أحدهم وأمروه أن يتلو ٧ مزامير التوبة مرة كل أسبوع مدة ٣ سنوات . وحرّموا عليه أن يكتب شيئاً .

وقد رأف به كرادلة الفاتيكان خلافاً لشيوخ أثينا الذين لم يرأفوا بسقراط زميله .

هكذا كان جزاء نوابغ الفلسفة والعلم في القديم الى عهد غير بعيد . كلما تقدم العلم كشح من أمامه فضاء الجهل والتعصب الأعمى .

* * *

وُلد جاليليو جاليلي في بيزا في ١٥ فبراير سنة ١٥٦٤ ، ومنذ حداثته كان مولعاً بعمل الألعاب . وكان أبوه يرغب في أن يعلمه فن الطب . فبعث به الى مدرسة بيزا فكان مبرزاً على أقرانه على الرغم من أنه لم يحب طب ذلك الزمان ، ولا فلسفة ارسطو ولا شيئاً من العلوم التي لا اختبار عملي فيها . ولكنه مال الى علم الرياضيات على الرغم من إرادة أبيه فنجح فيه وفي الفلك .

وكان من ثمار نبوغه انه اكتشف من جراء ترجُّح القنديل في الكنيسة الرقاص الذي يقاس به الوقت ، واخترع الساعة الفلكية التي أزاحت المزولة وحلت محلها .

ودرس هندسة اقليدس وعلم ارخيدس في المائيات والميكانيكيات وسائر الطبيعيات . واكتشف الثقل النوعي . واخترع الثرمومتر الزئبقي . وفي تلك الأيام ظهر نجم جديد في السماء ، فبرهن أنه خارج عن فلك النظام الشمسي . ثم ما لبث أن اخترع التلسكوب الذي كان يقرّب المرئيات نحو ٣٠ مرة ، فاكتشف به جبال القمر ووهاده ، ورأى نطاق المجرة مجموعة نجوم متزاحمة ، وكشف به أربعة أقمار للمشتري تدور حوله . وكان أول من كشف حلقات زحل . وهو أول من قال ان القمر لا يرينا إلا وجهاً واحداً فيه . وهو الذي ينعكس عنه كله نور الشمس في ١٤ من الشهر القمري ، وإنه يكون في حين المحاق قريباً للشمس وفي بدره مقابلاً لها ، ونحن بينهما . وطار صيته بعلمه وفلسفته في كل أوربا ولذلك هاج عليه رجال الدين والمؤمنون لأنهم رأوا أن علمه ينقض بعض نصوص الكتاب المقدس وكان ذلك سبباً لمحاكمته . وعلى الرغم من أنه كتب كتاباً يبرهن فيه أن أقواله لا تناقض الكتاب أبوا إلا أن يستدعوه الى ديوان التفتيش ، حيث حوكم وحكم عليه كما تقدم الكلام . وقضى من المحاكمة والحكم حتى أصيب بخفقان في قلبه ، فمات في ٩ يناير سنة ١٦٤٢ ودفن في فلورنسا يأسف عليه أنصاره ويسخط عليه الكافرون بالعلم والحقيقة .

والآن ماذا يقول أهل ديوان التفتيش بعد إن ثبت ما دانوه فيه . ذكره يبقى ، واسمه يخلد ، وديوان التفتيش انصرم وزال . وهكذا الزمان ، دول تدول ودول تقوم . فسبحان من لا يزول .